المقدمة

كان ذلك اليوم يصادف الثالث من أكتوبر ١٩٢٠م الموافق للعشرين من ذي الحجة (عام ١٣٣٩هـ)، وهو اليوم الذي يلي عيد الميلاد القمري الثاني والسبعين لابن سعود. وفي هذا العام لم يشعر الملك برغبة في مواجهة الحر الشديد لشهر سبتمبر في مكة، حيث أناب ولي العهد ليتولى رئاسة هذه المناسبة السنوية.

وقد مكثت أنا أيضاً في الرياض حيث إنني باستثناء زيارة واحدة لجدة لمدة أسبوعين لأداء بعض الأعمال في أغسطس، لم أغادرها منذ عودتي من إنجلترا في نهاية مايو. ويجب أن نقر بأنه في تلك السنوات القليلة الأخيرة من حياة الملك لم يكن روتين البلاط السعودي الرتيب مثيراً إلى حد كبير، على الرغم من أن العالم كان مليئاً بالتوترات بين الشرق والغرب: فالحرب الكورية كانت على أشدّها، والصينيون كانوا في طريقهم لاحتلال التبت.

وإذا اقتربنا أكثر من ديارنا نجد أن مراجل الشرق الأوسط كانت تغلي بالمشاكل: فقد ضاعت فلسطين، ولم يكن الملك مرتاحاً من السياسات المشبوهة للعراق والأردن، بينما كان يرى أن الملك فاروق لم يكن حكيماً في الضغط لإجلاء البريطانيين من منطقة القناة.

وتجاه كافة هذه الأمور كان رد فعله هو ما يقوم به رجل منهك طاعن في السن، لا يستطيع أن يفعل شيئاً لتحسين الأمور وهو يرى في كل ما حوله الإشارات المتوقعة لعالم متهالك يترنح نحو نهايته. ولم يكن الجو العام يبعث على البهجة إلا نادراً، وأعتقد أنني قد أصبحت أشعر بقليل من الملل من رتابة الحياة في العاصمة الرياض.

وربما ظهر ذلك جلياً في هذه المناسبة. عندما سألني الملك فجأة: "ماذا يدور في خلدك يا فيلبي؟" "هل أنت بحاجة لمال؟ قل لي وستناله" فأجبت: لا. ليس المال ما أحتاج، ولكن، إذا أردت أن تعلم ما أريد، فإنني أود أن أقوم برحلة في الربع الخالي وأزور البريمي وعُمان[1]. فأجاب فوراً: إنك لا تستطيع أن تفعل ذلك. فقد يظن البريطانيون أنني أرسلتك لتثير المشاكل، مثلما فعلوا في رحلتك إلى حضرموت[2]. ليس ذلك الآن، ولك ما أردت من شيء آخر. فقلت للملك حسناً إذن دعني أرحل شمالاً إلى خيبر وتيماء وأرض مدين. وأجاب: بالتأكيد. تستطيع أن تفعل ذلك متى ما أردت. عليك أن تناقش الترتيبات الضرورية مع يوسف والآخرين، وأخبرني متى تريد أن ترحل.

---

(١) لمزيد من المعلومات عن هذه الرحلة انظر كتاب: الربع الخالي، للمؤلف، نشر مكتبة العبيكان عام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) لمزيد من المعلومات عن هذه الرحلة انظر كتاب: بنات سبأ، للمؤلف، نشر مكتبة العبيكان ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

وفي الحقيقة كان لديّ قدر معين من العمل المطلوب إنجازه بإلحاح نيابة عن شركتي، ويتطلب ذلك زيارة لمدة عشرة أيام لمدينة جدة، إضافة لأعمال أخرى. ولم أغادر الرياض إلا في ١٨ نوفمبر عندما وليّتُ وجهي شطر مدين. ولم يُقدّر لي أن أرى العاصمة السعودية مرة أخرى إلا في أوائل مارس. كان معي ألف جنيه أعطاني إيّاها الملك لتغطية نفقات رحلتي، بينما أهداني ولي العهد الأمير سعود منظاره الشخصي عندما ذهبت للسلام عليه في الليلة السابقة لمغادرتي.

عندما ذهبت لجزيرة العرب أول مرة في ١٩١٧م[١] كان الموقف فيما يختص بمعرفة العالم لهذا البلد جيداً خاصة الجزء الشمالي منه أي فوق الخط الذي يربط ميناء العُقير على الخليج العربي بالرياض والمدينة. وذلك نتيجة للرحلات الشهيرة لكثير من أبرز الرحالة والمكتشفين المتميزين من العصر الفيكتوري والقليل من الذين سبقوهم من العهود السابقة. وقد سُجّلت مآثرهم وأعمالهم الجليلة في قصة رائعة عنوانها "اختراق الجزيرة العربية" التي نشرها في ١٩٠٥م الدكتور دي. جي. هوغارث، الذي أحرز قصب السبق في إعداد قائمة بالمناطق التي لم يكن يُعرف عنها شيء حتى ذلك

(١) لمزيد من المعلومات عن هذه الرحلة انظر كتاب: بعثة إلى نجد، نشر مكتبة العبيكان عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

الوقت إلا من خلال الإشاعات والأقوال المتناقلة. وتقع كلها جنوب الخط المشار إليه أعلاه، وبغض النظر عن حدود هذه المناطق المعروفة نسبياً إذ يسهل الوصول إليها عن طريق البحر إلا أن أياً منها لم تره عين غير عيون ساكنيها الأصليين. وقد كانت هدفاً واضحاً لأي طامح في شرف الريادة، وخلال العشرين عاماً القادمة كنت في وضع يسمح لي بأن أزعم أنني قد رأيتها كلها، ووضعت خرائط لها، ووصفتها وصفاً دقيقاً في أربعة مجلدات ضخمة[1]، وفي الوقت نفسه كان هناك آخرون قد أغراهم السير في نفس الاتجاه. فهناك آر. ائي. تشيزمان الذي كان أول أوروبي يزور واحة يبرين المجهولة على الطرف الشمالي من الربع الخالي في عام ١٩٢٣م، في حين كان بيرترام توماس أول من عبر هذه الصحراء الجنوبية العظيمة في عام ١٩٣١م من الجنوب للشمال، أي قبل عام واحد من عبوري لها من الشمال للجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

وقد سبقني ألماني - يدعى هانز هيلفرتز - إلى شبوة بعام أو عامين، بينما كان فان دير مولين وڤون ويزمان يقومان ببعض العمل الجدير بالإعجاب في أجزاء أقل شهرة في محمية عدن.

(١) وهي: قلب الجزيرة العربية، الربع الخالي، بنات سبأ، نجود الجزيرة العربية. المؤلف.

ولا ينبغي لنا أن ننسى عمل فريا ستارك[1] ودورين إنجرامز وزوجها في منطقة حضرموت. ويمكن أن يقال: إن استكشاف الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية قد أنجز بالطريقة المثلى القديمة قبل ظهور السيارات والطائرات؛ لتبدد أسرارها وخفاياها التي كانت منيعة ذات يوم. وقد أصبحت المنطقة كلها الآن مألوفة بدرجة كافية لموظفي شركة أرامكو وصيادي الجراد. وفي فبراير ١٩٥٥م كنت قد دُعيت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في قلب الربع الخالي مع بعض الأصدقاء في أرامكو !! بيد أن المحدثين -مع ذلك- لم ينجحوا بالكامل لأخذها على طريقتهم الخاصة، حيث لم تنقض سنوات طويلة منذ أوضح ولفرد سثيجر مرتين أن الربع الخالي لا يزال ممكناً عبوره بأصعب الطرق.

ومن المؤسف أنه كان شديد التكتم، قليل الكلام عن خبراته وتجاربه العظيمة في تلك الصحاري. ويمكن أن يُوجّه نفس النقد للعديد من المكتشفين الأمريكيين الذين قاموا بعمل أصيل ذي قيمة عالية في الكثير من أجزاء الجزيرة العربية، ولكنهم في الغالب تواروا بعيداً عن الأضواء والشهرة، واعتراف الناس بمساهمتهم التي لا تقدر بثمن في المعرفة الإنسانية. إنني أشعر بالامتنان لهم -فقط-

(١) صدر هذا العمل بعنوان: البوابات الجنوبية للجزيرة العربية سنة ١٩٣٦م بانجلترا.

لأنه ما زال يبقى لأيام شيخوختي ما يكفي من المسارات التي لم يسلكها أحد قبلي وظلت بكراً لي حتى تطأها قدماي في الأرض التي كرست لها الجزء الأعظم من حياتي.

والآن، لقد تحدثنا بما يكفي عن الجنوب، وإنني -بالطبع- لم أهمل الفرص الكثيرة التي سنحت خلال صلتي على مدى أربعين عاماً بالصحراء حتى أتنقل بشكل واسع في المناطق الشمالية، حيث كانت في أحيان كثيرة تثيرني مقارنة تجاربي الشخصية مع تجارب الكثير من الرحالة المشهورين في الماضي مثل تشارلز داوتي، وولفرد والليدي آن بلُنت، وتشارلز هوبر، وريتشارد بيرتون، وكارلو غوارماني، والكثيرين غيرهم. لقد غطت رحلاتي في الحقيقة المنطقة الشمالية بالكامل تماماً مثل المنطقة الجنوبية، ولكن مثل ما كانت المرتفعات البارزة من مرتفعات عمان تمثل فجوة هائلة في معرفتي الشخصية بالجنوب، فقد كانت هناك أيضاً ثغرة موازية لها في خبرتي بالشمال. وبغض النظر عن رحلة قصيرة واحدة في ١٩٣١م من المدينة إلى العلا على طول خط سكة حديد الحجاز، وزيارات إلى موانٍ مختلفة على البحر الأحمر شماليّ جدة، فإن كامل المنطقة الواقعة بين المدينة والعقبة، وبين البحر وخط يمتد للشرق من السكة الحديدية كانت مجهولة بالنسبة لي. وهذه هي المنطقة التي حظيت الآن باكتشافها على خُطا داوتي، وبيرتون،

ووالين وأويتنغ وهوبر وجوسين وسافيناك والويس موسيل وكاروثرز، ناهيك عن لورانس ورفاقه في الحرب العالمية الأولى الذين قاموا ببعض العمل الجغرافي القيّم خلال فترات أنشطتهم المدمّرة.

وأعتقد أنني أستطيع الآن بصورة موضوعية أن أزعم أنني قد رأيت الكثير من هذه المنطقة أكثر مما قد رآه جميع هؤلاء ممّن سبقوني مجتمعين. لقد امتزت، بالطبع، عليهم بالاستفادة من التنقل بالسيارات، بينما كانت رحلاتهم على ظهور الجمال، مع بعض الاستخدام للسكك الحديدية من قبل الأربعة الأخيرين ممن سبق ذكرهم أعلاه. ومع احتساب الرحلة إلى العلا المذكورة أعلاه، فقد استطعت أن أقوم بأربع رحلات منفصلة في المنطقة، وكانت الثلاث الأخيرة بين نوفمبر ١٩٥٠م ومارس ١٩٥٣م، أي أنها امتدت في مجموعها إلى نحو ستة شهور من الاستكشاف المكثف لسهول، وأودية، وجبال أرض موغلة في القدم والتي يرجع أوج مجدها إلى عهود إبراهيم وموسى وسليمان (عليهم السلام)، هذا فضلاً عن نبوخذ نصر البابلي الذي كانت تيماء عاصمته الصيفية، أو عن ملوك اللحيانيين، والمعينيين، والأنباط الذين حكموا على التوالي عرب عاد وثمود، وسيطروا على طريق التجارة العظيم الذي سارت في دروبه التوابل والعطور من اليمن السعيد إلى مراكز الحضارة العظمى في الأيام الخوالي.

وحيث إن بعضاً من هذه البعثات قد تداخلت فيما بينها في نقاط معينة بالضرورة، فقد سعيت لتقديم صورة مركّبة " لأرض مدين " بناءً على ما وفرته هذه البعثات كلها، بدلاً من محاولة تقديم وصف مفصّل لكل واحدة منها على حدة. ونتائج رحلاتي سوف يتم تجميع معظم أجزائها حول إطار العمل الذي قامت عليه الرحلة، وهو الذي برزت فكرته في الرياض كما أسلفت. وقمت بها بمفردي مع المرافقين العرب الذين كان اهتمامهم بالأحداث، كما سيظهر في حينه، يتسم باللامبالاة وتعوزه الحماسة.

وفي البعثات الثلاث الأخرى كان معي رفاق أكثر ذكاءً، والذين أقّر بتعاونهم في تكوين الصورة بأقصى قدر من الشكر والامتنان، وعلى وجه الخصوص تعاون بوغ (دك) من " منظمة النقطة الرابعة الأمريكية " في جدة، وهو اختصاصي في الجيولوجيا ذو خبرة واسعة وشهرة عريضة، كما أنه أمريكي خشن شأن الأمريكيين ولكن قلبه بالغ الرقة والعذوبة وكان رفيقاً مرحاً وأحياناً صعباً، وتعلمت منه أكثر مما يمكن أن يعبر عنه الكلام. وربما كان يدين لي بحقيقة بقائه على قيد الحياة الآن، بيد أنه يجب الاحتفاظ بهذه القصة لوضعها في مكانها الصحيح لاحقاً. وفي الرحلتين الأخيرتين كان معي رفاق مصريون من ذوي الكفاءة الفنية الفذة والجاذبية الشخصية وهم: إبراهيم كردي، الذي يعمل لدى شركة ماركوني

للإشراف على تركيب محطات اللاسلكي في المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ومصطفى صادق، وهو اختصاصي في علوم طبقات الأرض (الجيولوجيا) وذو خبرة هائلة في المناجم والرواسب المعدنية في وطنه، والذي مهّد تقريره عن احتمالات العثور على الكبريت والحديد في مدين، الطريق للبعثة الأخيرة مع بوغ.

وإلى هؤلاء الثلاثة، ثم إلى جميع محافظي وأمراء وحكام المناطق والأقاليم التي زرتها خلال هذه الرحلات، والذين كان كرمهم وحسن ضيافتهم وتعاونهم فوق كل ثناء، يعود الفضل الأكبر في تجميع كل المعارف والمعلومات الواردة في هذه الصفحات. إن آلام ومعاناة تلك الرحلات في الصحراء العربية يجب تسجيلها عند وقوعها لبعث البهجة والسرور في نفس القارئ، ولكن هذه الآلام أصبحت بالفعل في طي النسيان والغفران عندما ينظر المرء للوراء بفخر حقيقي للعمل الذي تم تنفيذه والنتائج التي تم تحقيقها. ولا أندم سوى على عجزي عن إعداد خريطة كاملة لتلك الأصقاع في وقت صدور هذا المجلد، بيد أنني آمل أن يكون الرسم التوضيحي المرافق للمجلد هذا مفيداً للرحالة الآخرين الذين ستغريهم الصحراء إلى آخر الزمان، وهذا طبقاً لحديث صحيح من أحاديث النبي ﷺ: «**يُوشِكُ يَا مُعَاذُ إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَاهُنَا قَدْ مُلِئَ جِنَانًا**»(١).

(١) انظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ برقم (٢٢٨١/ ١٠-٧٠٦).

وكانت المدينة نقطة الانطلاق المناسبة لبعثتي إلى مدين، وكان أحد أهدافها الرئيسة جمع النقوش القديمة في مجال نال اهتماماً جزئياً من قبل تشارلز هوبر وجوليوس أويتنغ في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، وكذلك اهتمام بير جوسين وسافيناك من القدس بين عامي ١٩٠٧م و١٩١٠م. ولم أكن أتوقع أن أعثر على أي شيء شديد الإثارة مثل مسلة تيماء الشهيرة، الموجودة الآن في متحف اللوفر، أو النقوش الملكية المعينية في مدائن صالح والعلا (ديدان القديمة)، ولكن النصوص الثمودية والنبطية الجديدة سيتم اكتشافها بكل تأكيد تقريباً، هذا فضلاً عن بعض النصوص السبئية والمعينية بل وحتى اليونانية، بينما كان أحد أحلامي الذي بعث برغبتي في زيارة مدين هو احتمال اكتشاف مصدر في شمال غرب الجزيرة العربية لنقوش سيناء البدائية الشهيرة، والتي لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت إلا من سيناء نفسها ويعتقد أنها أصل الأبجدية.

وفي الحقيقة فإن أحد النقوش التي اكتشفها ريتشارد بيرتون في مدين قد أدرجها جي. ليبوفتش في الجدول الذي وضعه لنقوش سيناء البدائية، والتي نشرها في ١٩٤٠م، على الرغم من أنها قد تبدو الآن نقوشاً ثمودية في الواقع. ويجوز لي أن أقول في الحال: إن بحثي عن مادة من هذا النوع كان سلبياً بالكامل من حيث النتائج على الرغم من أنني قد جمعت فعلاً ما يقرب من ألفي نقش من

أنواع مختلفة، كانت مبعثرة في منطقة شاسعة تمتد من المدينة إلى خليج العقبة. وبالتالي ربما يكون من الأسلم أن نفترض أن نقوش سيناء لم تنبع من جزيرة العرب. ومع ذلك، فقد وجدت بالفعل بعض النصوص التي يمكن مقارنتها، فيما يبدو لي، مع نص بيرتون المذكور أعلاه في بعض القرى القريبة من الرياض.

لقد أخبرني عن وجود هذه النصوص أحد أصدقائي العرب قبل حوالي عشرين عاماً، عندما مررنا على بُعدٍ من تلك القرية في طريقنا إلى المجمعة، ولكن لم تتوفر لي أبداً فرصة زيارة الموقع منذ ذلك الحين. والآن، على كل حال، ومع وجود متسع من الوقت، فقد قررت أن أسير إلى المدينة، ليس بالطريق الرئيسي السريع، ولكن عبر الطرق غير الممهدة التي تمر على هذه المرتفعات نفسها في حصاة القريف، حيث استطعت أن أتحقق من دقة معلومات صديقي.

ولكي أصل إليها، فقد سرت في شعيب حريملاء العظيم وعبر الواحات الكثيرة الواقعة على مجراه، الشهيرة في تاريخ نجد بنشأة بعض أشد الرجال والأكثر تمرداً في فترة كانت الحركة الوهابية – وهي لا تزال فتية بعد – تحاول أن تشق طريقها للأمام ضد أبطال الفوضى والاستقلال الأقوياء.

وكانت العقيدة هي التي انتصرت في النهاية، حيث وجدت أقوى وأشد المدافعين عنها من مواطني حريملاء وضواحيها، والذين شكّلوا العمود الفقري للجيش الذي ساعد ابن سعود في وقتنا الحالي على إقامة حكمه في الجزيرة العربية كلها. لقد كان في حريملاء مكان إقامة والد محمد بن عبد الوهاب بعد فصله من وظيفة القاضي في مدينة العيينة موطنه الأصلي، وهناك أيضاً انضم إليه ابنه الشهير بعد "رحلته العالمية" لنشر فلسفته الداعية لتطهير العقيدة والتي -بعد الكثير من الابتلاء والامتحان- أصبحت تسيطر على عموم الصحراء لما يقرب من قرنين من الزمان إلى أن ذابت في الثورة الاجتماعية التي صاحبت اكتشاف البترول. وقد قيل لي عن وجود بعض الكتابات القديمة في المنطقة المجاورة لحريملاء ولم أتمكن من العثور عليها [1].

تحتل حريملاء موقعاً استراتيجياً طبيعياً قرب رأس الوادي على طرف جبل طويق، ومنها نزلنا إلى حوض شعيب العتك والذي يمثل حدوداً بين منطقة العارض وسدير. ثم -ومروراً بقرية رغبة التي يوجد بها أطول برج مراقبة على الأرجح والذي ما يزال قائماً منذ أيام الاضطرابات والحروب القبلية الماضية، التي سبقت إقامة نظام

(١) وقد استطعت أن أحصل على نسخ من هذه الكتابات بعد ذلك بحوالي ست سنوات. المؤلف.

الحكم الوهابي- أتينا إلى واحة ثادق الهامة، وبعد ذلك فوراً دخلنا مرتفعات سدير، وهي منطقة اشتهرت في الماضي بالحروب الضروس بين الكثير من قراها المسوّرة وفصائل قبائلها الكبرى.

وهنا خلف مدينة وواحة جلاجل التي كانت مهمة ذات يوم، ضربنا خيامنا وسط تلال حصاة القريف ذات الأحجار الرملية، لنسخ النقوش التي ذكرناها من قبل. وفي اليوم التالي وصلنا إلى المجمعة، وهي أكبر المدن والعاصمة الحالية للمنطقة، والتي أدى مواطنوها دائماً دوراً هاماً في الحياة الفكرية للمنطقة. ولبعضهم ندين بجميع ما نعرفه عملياً عن تاريخ نجد والحركة الوهابية، وكان من بينهم الكثير من أشهر الزعماء الدينيين في العصور الحديثة، وكان بعضهم شعراء ذوي شهرة عريضة، والذين لأشعارهم ذوق وطعم ديني قوي، وهي تحتفي بالانتصارات شبه الحربية للعقيدة الدينية وبخدمات أولئك الذين ساهموا فيها.

ووراء المجمعة كانت تلال الأحجار الرملية المتناثرة في سهل واسع من الصحراء الجرداء قد وفرت لي محصولاً آخر من النقوش الثمودية، عندما كنا نسير في راحة وتمهل إلى قرية الغاط الساحرة في أخدود كبير ينزل من أعلى الجرف إلى السهل في الأسفل. وهنا يقع موطن عائلة السديري المشهورة، وهي في الأصل من الدواسر ولكنها استقرت في سدير منذ أمد طويل، والتي زودت هذا البلد

بالكثير من أشهر إداريها كما زودت العائلة بالبنات للزواج حيث أصبحن زوجات وأمهات للملوك والأمراء. وكان ابن سعود نفسه مولوداً من أم سديرية، وكان اثنتان من زوجاته اللائي بقين على قيد الحياة بعد وفاته أيضاً من نفس العائلة، وما لا يقل عن واحد وعشرين من ذريته المباشرة (أولاده وأحفاده) من أصل سديري من جهة الأم، وفي اليوبيل الملكي (١٩٥٠م) كان ثلاثة عشر فرداً من هذه العائلة يحتل مناصب أمراء المناطق. والممثل الوحيد لهذه القبيلة المقيم في وطنه القديم في وقت زيارتي كان يدعى ناصر، وهو واحد من القلائل الذين لم يتولوا أبداً أي منصب إداري هام، على الرغم من أنه كان أحياناً ينوب عن أخيه الشقيق، عبد الله، أمير المدينة. وقد أخذني في جولة على القصر الجديد الذي كان يشيده لفخذه من العائلة ليحل محل المنزل المريح -ولكنه من الطراز القديم- المبني من الطين. لقد كان أسلافه أشد سعادةً ورضاءً به.

ونظراً لأننا قد رفضنا دعوة ناصر الملّحة لقضاء الليلة معه، فقد واصلنا السير لنضرب خيامنا على مشارف نفود صلانج وهي شريط عريض من التلال الرملية التي تفصل منطقة سدير عن منطقة القصيم. وخلال الليل استمتعنا بتجربة نادرة برؤية قوس قزح قمري، حيث كانت تحيط بالقمر التام هالة مضيئة تزيد عن ثلاثة أضعاف قطره، بينما على مسافة مقدرة من المجموعة، واعتماداً

على الغيوم في الأفق، ارتفع قوس قزح أبيض هائلاً من بين الغيوم في أحد النواحي حتى الذروة "السمت" ليهبط مرة أخرى إلى حافة الغيوم في الناحية الأخرى.

لقد كانت تفاصيل هذه الظاهرة الطبيعية واضحة وكاملة تماماً وياله من منظر رائع. والمسار عبر التلال، وهو واحد من عدة مسارات كانت تطرقها الجمال فقط في الأصل، أصبح الآن مساراً يمكن للسيارات أن تسلكه أيضاً. ولم يكن صعباً بالرغم من أن مقطورة سيارتي اللاندروفر قد تعرضت لبعض المشاكل في الأجزاء الأكثر نعومة وانحداراً. وفي وقت مناسب وصلنا إلى طريق الرياض - بريدة الرئيس على طول الجانب البعيد، وبحلول الظلام وصلنا بريدة نفسها، لنتمتع بكرم ضيافة أميرها عبد الله بن مساعد. والقصيم، التي كانت ذات يوم موئل حرب مستمرة بين الأسر الحاكمة في الرياض وحائل، مع تدخل الأتراك المسلح لصالح الأخيرة في عدة مناسبات، لم تعد الآن عنصراً هاماً في المملكة العربية السعودية وهي تشكل منطقة فرعية تابعة لمنطقة حائل الشمالية، أو جبل شمر حيث كان عبدالعزيز والد عبد الله يمارس سلطة كاملة على إدارة ولده وعلى جميع الجزء الشمالي الشرقي من المملكة العربية السعودية، من حدود الحجاز حتى المستنقعات الغربية في العراق.

لقد سافرت على نطاق واسع في منطقة القصيم خلال أيامي الأولى بالجزيرة العربية، وفي مناسبات عديدة مؤخراً، ونشرت وصفاً مفصلاً لها في كتابي "جزيرة العرب الوهابية" (١٩٢٨م)، والذي يمكن للقارئ أن يعود إليه للحصول على معلومات عن هذه المنطقة وتاريخها المضطرب.

وما إن وصلنا إلى الجزء الغربي من المسار حتى أصبحنا الآن في أرض جديدة مرة أخرى وسط ميادين معارك المليدا والبكيرية والشنانة الشهيرة. وكانت الأولى قد أطفأت مؤقتاً حكم آل سعود في صحراء الجزيرة العربية، ووضعت هذا البلد لأكثر من عقد من الزمان (١٨٩١م- ١٩٠٢م) تحت رحمة محمد بن رشيد المشهور، الذي كان يحكم حائل في زمن داوتي، وابن أخيه الذي خلفه في الحكم. والموقعان الأخيران شهدا انتصار ابن سعود الحاسم في ١٩٠٤م على ابن رشيد وحلفائه الأتراك، الذين جاؤوا بما لا يقل عن ثماني كتائب نظامية من بغداد والمدينة في محاولة يائسة لكبح جماح النجاحات المتزايدة للدولة الوهابية.

وكانت المناطق الرملية القاحلة تنقطع هنا وهناك بواحات من النخيل التي تظهر بصورة عرضية، وفي إحداها، رياض الخبرا، اختبأنا في الليل من عاصفة مفاجئة من أمطار فيضية، والتي وجدنا في وسطها صُدفة طائراً وحيداً من طيور البجع يستمتع بالفيضان غير

المألوف في صحراء ليس فيها ماء، وبعيداً عن البحر الذي ضل طريقه إليه.

ومن المؤكد أن منطقة القصيم هذه التي تمتد عبر نهر وادي الرمة القديم، كانت مركزاً للنشاط البشري منذ الأزمان الباكرة، ولكنها كانت خالية تماماً من النقوش الثمودية أو غيرها، التي لا تظهر إلا على حوافها الشمالية في واحة العيون وصخرة ساق المعزولة في وسط هذه البرية.

لقد زرت الأولى منذ عدة سنوات مضت لأنفي وجود ستون هنج Stonehenge[1] التي ذكرها وليم جيفورد بالجريف خلال جولاته الخيالية حقاً في الصحراء العربية عام ١٨٦٣[2] والآن فقد

(١) "ستون هنج" أحد أضخم وأشهر المباني الحجرية في انجلترا. يوجد في سالزبوري وهو عبارة عن تشكيلات نصب حجرية ضخمة رصفت بطريقة هندسية داخل خندق دائري الشكل.
وكان يعتقد في السابق أنها معبد بناه الدرود ولكن الأبحاث الأثرية الحديثة أوضحت أنه موقع أثري معقّد التكوين ومنه هذه النصب الحجرية التي تفسر على أنها أضخم جهاز معماري هندسي رفيع لقياس حركات الشمس والقمر وأحداث الكسوف والخسوف، ويعتقد أنها بنيت في حدود ٢٠٠٠ ق.م. المترجم.

(٢) وهذه الرحلة نشرت تحت عنوان:

Persomal Narrative of A year's Journay thraugh Central and Eastern Arabia. 1862-1863, London: Darf Publishers Limited, 1985.

ثم خرجت في مجلدين عن طريق المجلس الأعلى للثقافة في مصر، وقام بترجمتها: صبرى محمد حسن، ٢٠٠١م.

زرت تل ساق حيث يوجد القليل من الآثار القليلة التي تذكرنا برجل ثمود القديم.

وإلى البعيد في الغرب أتينا على واحة النبهانية حيث باءت جهود الأتراك لسحق ابن سعود بالفشل والمأساوية في النهاية، ومنها عبرنا وادي الرمة في طريقنا إلى قريتي مسكة وضرية التي سمع داوتي حكايات عنهما خلال رحلاته، على الرغم من أنه لم يزرهما حقيقة. لقد بدا وجودهما مشكوكاً فيه بدرجة كبيرة، على الرغم من أنهما كانتا موضوعتين في الخرائط القديمة بناءً على قوة تقارير داوتي. ويبدو أن هناك شكاً في وجودهما لدرجة أنهما قد حذفتا من أحدث طبعات الخرائط الدولية مقياس المليون، والتي يجب أن تعاد إليها، حيث إنني قضيت ليلة في كل واحدة منهما. لقد كانتا في الحقيقة مركزين معروفين على درب الحج القديم من العراق للمدينة ومكة، ويشهد على ذلك وجود العشرات من النقوش الكوفية في ضرية.

ومن هنا كنت أخطط لقطع المنطقة عبر طريق غير ممهد ولم يكن مكتشفاً أو مرسوماً على الخرائط بالكامل. وفي وسطه زرت الموقع المهجور لإحدى قرى الإخوان من أوائل العهد الوهابي، حيث قامت مجموعة من الأتقياء منهم بمحاولة العيش بدون الاعتماد على شيء إلا رحمة الله.

وبالقرب تقع مجموعة رائعة من النتوءات الجرانيتية الجرداء، تسمى الحسو، ووراءها زرنا آبار الطلاب حيث هاجم أحد أوائل حكام آل سعود قبيلة مطير، حيث استولى على جميع إبلهم بعد معركة ضارية[1] وقامت القبيلة بهجوم مضاد وأرسلت حشداً من رجالها واستدعت تعزيزات لمساعدتها، إلا أنها خسرت جميع غنائمها وكافة معدات معسكرها.

وإلى الوراء من ذلك وصلنا إلى البركة التي تعد نموذجاً رفيعاً ورائعاً لكثير من خزانات المياه العظيمة المتناثرة في صحراء الجزيرة العربية، على طول الدروب المختلفة التي عبر من خلالها في العهود الماضية الحجاج من العراق وبلاد فارس الجزيرة العربية في طريقهم إلى مكة والمدينة.

وبعد حوالي سبعة أميال وصلنا إلى واحدة من مناطق تقسيم مياه الأمطار الرئيسة في الصحراء بين أنظمة أودية رغوة والبقر، حيث إن وادي رغوة وجميع القنوات الواقعة إلى جنوبه تعد روافد لوادي الرمة، التي تنطلق من مرتفعات حرة خيبر البركانية وتسير باتجاه الشرق نحو الخليج الفارسي بالقرب من البصرة، في حين يتدفق الأخير وروافده باتجاه الغرب إلى واديي العقيق والحناكية العظيمين،

(١) وهو فيصل بن تركي (١٨٣١م) وكان ولده سعود الثالث قد تعرض لتجربة مشابهة في عام ١٨٧٣م، المؤلف.

اللذين يلتقيان قرب المدينة مع وادي حمض الذي ينشأ أيضاً في حرة خيبر، ويشكل النهر الكبير الذي يتدفق باتجاه الشمال على طول خط سكة حديد الحجاز لمسافة مئة ميل قبل أن يتحول لاتجاه الغرب ليصل إلى البحر الأحمر. ويقع خزان البركة في نقطة تتقابل فيها جداول مائية كثيرة، من نظام التصريف باتجاه الغرب ومن جهات مختلفة لتصب فيضاناتها في خزان مستطيل، وهو مصمم لتنقية المياه وترشيحها قبل أن تمر عبر البوابات الموضوعة على مستوى أعلى في خزان دائري ضخم، مبني بصخور الجرانيت المشذبة تشذيباً جيداً ومليّسة بالإسمنت. ولا يزال هذا البناء في حالة جيدة، على الرغم من أنه لا يوجد ماء في أي من الخزانين، ربما بسبب الإهمال الطويل لقنوات التغذية منذ تحويل حركة مرور الحجاج إلى خط جهة الشمال أكثر ملاءمة للسيارات.

إن كل المنطقة المحيطة بالخزان لمسافة بعيدة في جميع الاتجاهات كانت تعرف حتى وقت قريب باسم حمى الحناكية (أي أرض مرعى)، وكانت محظورة بصورة صارمة لرعي إبل الأسرة المالكة. بيد أن استبدال الإبل بالسيارات قد جردها من أهميتها القديمة، وقد تخلى ابن سعود مؤخراً عن امتيازاته في الرعي بالمنطقة لصالح البدو من مربي الإبل. وتبلغ قياسات خزان الترشيح والتنقية ١٦٢× ٤٥× ١٠ أقدام، مما يسمح بترسب طبقات الطمي الكثيفة التي تثقل الآن

قاع الخزان، وكانت سعته حوالي ٧٣ر٠٠٠ قدم مكعب من المياه عند امتلائه. والخزان الدائري محاط بجدار من الجرانيت سمكه ٢ر٥ قدم وارتفاعه ١٢ قدماً، بينما يبلغ محيطه حوالي ٦٥٧ قدماً، وقطره حوالي ٢١٩ قدماً.

ونحن الآن نسير باتجاه الحافة الخارجية لسلسلة جبال تغطي الطرق الشرقية المؤدية إلى المدينة، وقد مررنا بها وعلى طول حوض الملح الكبير في الحناكية، إلى واحة الحناكية نفسها، التي كانت ذات يوم مركز مراقبة واستطلاع خارجي مهماً لمدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم). وقد عملت أيضاً في عام ١٨١٨م كقاعدة متقدمة لجيش إبراهيم باشا المصري في حملته ضد الوهابيين، التي نتج عنها تدمير الدرعية العاصمة السعودية بالكامل، في تلك الأيام، والاختفاء المؤقت لأسرة آل سعود. وقد انخفضت هذه المستوطنة الآن إلى عدد محدود من الأحياء غير الهامة في غابة هائلة من أشجار النخيل والدوم والتي تم مؤخراً استخدام قليل من ماكينات الضخ لريها.

والآن عدنا إلى دروب السيارات الرئيسة المؤدية من المدينة إلى حائل والقصيم، والتي سلكناها عدة مرات في سنوات خلت. ومع ذلك فقد طلبت أن نتوقف قليلاً لتناول الغداء عند عبورنا وادي الصويدرة لكي أقوم بفحص سريع لبعض النقوش الثمودية والصور الصخرية، التي رأيتها من قبل بطريقة عابرة. بيد أنني قررت مرة

أخرى أن أؤجل الاستكشاف الصحيح لهذا الوادي وتلال جبل المكتب (أي التل ذو الكتابات) المجاورة له إلى مناسبة أخرى تكون أكثر ملاءمة، وهكذا ضاعت فرصة عظيمة لإضافة نصوص هذه المنطقة إلى المادة المتوفرة لدراسة نقوش وتاريخ ثمود. وخلال سيرنا، أعطانا ارتفاع طفيف في حقل الرواسب البركانية (لافا)، الذي كان الطريق يمر خلاله، أول لمحة لقُبّة ومنارات مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، الذي لا يزال يبعد عنا بثلاثة عشر ميلاً. وقبل الغروب بحوالي نصف ساعة كنا ندخل المدينة، حيث تم استقبالنا بحفاوة وكرم في بيت الأمير، في ٤ ديسمبر ١٩٥٠م، وهي الذكرى الثانية والأربعون لوصولي لأول مرة إلى لاهور لأتولى واجبات وظيفتي في الخدمة المدنية الهندية عام ١٩٠٨م.

لقد قطعنا مسافة تزيد عن ٩٠٠ ميل (تبلغ في الحقيقة ١٤٦٨ كيلومتر) من الرياض لنصل إلى المدينة، نقطة البداية الحقيقية للرحلة التي عزمنا عليها، على الرغم من أننا لم نستطع أن ننطلق فيها إلا في العشرين من ديسمبر. فقد كنت مضطراً لزيارة جدة لأداء بعض الأعمال، التي استغرقت وقتاً أطول مما كنت أتوقع. وعلى كل حال فقد عدت للمدينة في الخامس عشر من ديسمبر، وقضيت هذه الأيام الفاصلة في عمل ترتيبات الرحلة، وحزم الإمدادات والمؤن وجمع فريق جديد من المرافقين ليحل محل أولئك الذين أتوا معي من بريدة.

إن هذا التأخير الذي كان يثيرني ويؤلمني قد ثبت أنه نعمة من الله، فرب ضارة نافعه، ففي نفس ليلة انطلاقنا الحقيقي تلقيت بريداً من جدة، يحتوي على مجلد كان إضافة هائلة لقيمة الرحلة القادمة والاستمتاع بها، وهو نسخة أولى من الدراسة الشاملة التي قام بها بيريه ألبرت فان دين براندن عن كافة النقوش الثمودية المعروفة للعالم في ذلك الوقت، على الرغم من أنها لم تشمل إلا حوالي ٨٠٠ أو يزيد من مثل هذه النقوش من التي نسختها في عامي ١٩٣٦- ١٩٣٧ من المناطق الجنوبية من المملكة العربية السعودية. هذه النقوش وتلك التي جمعتها خلال الرحلة التي نحن بصدد وصفها الآن قد نشرها في مجلدين بيريه فان دين براندن في هريسه بلبنان[1]، في حين يوجد ٩٫٠٠٠ نصٌ ثموديٌ تم جمعها من نجران وما حولها والمناطق المجاورة لها في عامي ١٩٥١م- ١٩٥٢م خلال البعثة التي نظّمها جي. ريكمانز وأنا، ويجري أيضاً الإعداد لنشرها في المستقبل القريب بواسطة الأستاذ نفسه وابن أخيه جاكس ريكمانز الذي كان أيضاً في البعثة وفي طريقه إلى أن يصبح أحد الخبراء البارزين في نقوش وتاريخ جنوب الجزيرة العربية. وبالنسبة لي فلا أدعي فخراً سوى تقديم بعض الخدمة لعلم النقوش السامية، وبأنني

(١) تحت عنوان النصوص الثمودية لدى فيلبي. مجلدين. طبعا في هريسه ونشرا في لوفان ١٩٥٦م. المؤلف.

كنت مسؤولاً بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن زيادة العدد المعروف الآن من النقوش الثمودية، من حوالي ٢٠٠٠ إلى ما يربو على ١٣٠٠٠ نقش. والنقوش السامية هي التي كتب عنها دكتور ليدزبارسكي، عالم الساميات الشهير، منذ حوالي نصف قرن مضى قائلاً: «أعتقد أنه من الخطأ أن نتوقف عند هذه الترهات».